الباب الثاني

قيام الدولة الاموية بالاندلس

الفصل الأول

عبد الرحمن الداخل (صقر قريش) :

سقطت الدولة الأموية عام ١٣٢ هـ ، وتولى السفاح أمر الخلافة الاسلامية بعد أن تغلب على قوات الأمويين فى معركة نهر الزاب بانتصار عمه عبد الله بن على على جيوش مروان بن محمد آخر خلفاء الامويين ، وقد طارد العباسيون من بقى من الامويين مطاردة عنيفة فى أنحاء الاقطار الاسلامية ، وقتلوا عددا كبيرا منهم بطريقة الغدر ونكث العهود، وكان من نتائج هذه المطارة أن اختفى عدد من هؤلاء الامراء ، واستطاع احدهم وهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ان يفر من وجوه المطاردين وينجو بنفسه وكان إذ ذاك فى العشرين من عمره

تربى عبد الرحمن يتيما فى بيت الخلافة الاموية ، فقد مات ابوه معاوية سنة ١١٨ هـ وهو ابن خمس سنين فكفله واخوته جده هشام بن عبد الملك عاشر الخلفاء الامويين ، وكانت امه من قبائل البربر تسمى راح ، وكان الخليفة يقطعه اخماس الاندلس فاتجهت انظاره إليها بعد نكبة اسرته بالمشرق

جدّ بنو العباس فى طلبه ففر منهم إلى افريقية وإليك ما قاله عن كيفية فراره :

« وإنى لجالس يوما فى قرية على شط الفرات فى ظلمة بيت تواريت فيه لرمد كان بى وابنى سليمان يلعب أمامى ، إذ دخل الصبى فازعا باكيا فأهوى إلى حجرى فجعلت أدفعه لما كان بى ، ويأبى إلا التعلق بى وهو دهش يقول ما يقوله الصبيان عند الفزع ، فخرجت لانظر فاذا بالروع قد نزل بالقرية ، ونظرت فاذا بالرايات السود عليها منحطة ، وأخ لى حدث السن كان معى يشتد هاربا ويقول لى « النجاة يا أخى فهذه رايات المسودة » ، فضربت بيدى إلى دنانير تناولتها ونجوت بنفسى والصبى أخى معى ، وأعلمت أخوتى متوجهى وأمرتهن أن يلحقنى ومولاي بدر معهن ، وخرجت فكمنت فى موضع ناء عن القرية . فما كان إلا ساعة حتى أقبلت الخيل فأحاطت بالدار فلم تجد أثرا ، ومضيت ولحقنى بدر فأتيت رجلا من معارفى بشط الفرات . وأمرته أن يبتاع لى دواب وما يصلح لسفرى فدل علىّ عبد سوء له ، فما راعنا إلا جلبة الخيل تحفزنا ، فسبحت حاثا لنفسى وسبح الغلام أخى فنادانا القوم من الشط أرجعا لا بأس عليكما ، فلما قطعت نصف الفرات قصر أخى فالتفت لأقوى من قلبه ، وإذا هو قد أصغى اليهم وهم يخدعونه عن نفسه فناديته « نقتل يا أخى إلى إلىّ » وإذا هو قد اغتر بأمانهم وخشى الغرق فاستعجل الانقلاب نحوهم ، وقطعت أنا الفرات ، ثم قدموا الصبى أخى الذى صار اليهم بالأمان فضربوا عنقه ومضوا برأسه وأنا أنظر اليه ، فاحتملت فيه ثكلا ملأنى مخافة ، ومضيت إلى وجهى أحسب أنى طائر ، فلجأت إلى غيضة فتواريت فيها حتى انقطع الطلب ، ثم خرجت هاربا أروم المغرب حتى وصلت إلى أفريقية وهناك لحق بى مولاى بدر وسالم ومعهما دنانير وجواهر »

حال أفريقية وقتئذ

كان يحكم أفريقية وقتئذ عبد الرحمن بن حبيب الفهرى ، وكان يأمل أن تبقى ولاية أفريقية له فى ظلال العهد الجديد ، ولذلك قلب ظهر المجن للأمويين أسياده القدماء ، ودار مع الدهر ونسى احسانهم اليه ، ولذلك جد فى طلب عبد الرحمن الأمير الأموى حتى يفتك به ، واستطاع عبد الرحمن أن يهرب من وجهه وفتك الوالى بولدى الوليد بن يزيد بن عبد الملك

جاب الأمير الأموى بلاد برقة على غير هدى . وانتقل بين قبائلها وكان يلقى فى كل بلد حل فيه كراما يكرمون مثواه لما اتصف به من دماثة الخلق ونبل الصفات ، وأخيرا انتهى به المطاف إلى مدينة تاهرت حيث تقيم قبيلة زناته وهى من القبائل المشهورة بين البربر ، واليها ينتسب طارق بن زياد ، وكانت منتشرة فى جزء عظيم من ساحل أفريقية ولها أعوان وأنصار كثيرون . وقد لقى الأمير بينها ما كان ينشده من عطف وبخاصة بين قبيلة نفزة الضاربة حول سبته والتى تنتسب أمه اليها ، فكان منها أخواله ، وكان قد قضى نحو الخمس سنوات فى مطافه وتأكد فى أثنائها أنه لا يستطيع إقامة ملك له فى أفريقية فاتجهت أنظاره إلى أسبانيا

حال اسبانيا فى ذلك العهد :

كانت الحروب الأهلية تمزق أسبانيا ، وكان أميرها يوسف الفهرى يطارد الثوار فى طليطلة وسرقسطه ، فرأى الأمير الأموى ان الفرصة سانحة للاتصال بانصار أسرته ، فيها وأرسل بدرا مولاه يحمل خطابا إلى هؤلاء الأنصار يشرح فيه ما لاقاه من نفى وتشريد وما ناله من اضطهاد فى أفريقية ، وسافر بدر

لاتمام رسالته ونزل بين قبائل الأمويين النازلة فى مقاطعة البيرة وجيان ، واجتمع بالزعماء وكانوا حاقدين على إدارة يوسف الفهرى ووزيره الصميل لميلهما إلى الفهريين والقيسيين وتفكيرهما فى سلخ الأندلس عن خلافة العباسيين والاستقلال بها

كاشف بدر هؤلاء الزعماء بمقصده وأخبرهم بأمر عبد الرحمن الأموى فرحبوا بالفكرة ، وقرقرارهم على دعوة عبد الرحمن إلى بلاد الاندلس وعقدوا الخناصر على مؤازرته ، وأرسل الزعيمان الأمويان أبو عثمان عبيد الله وصهره عبد الله بن خالد الدعوة الى الامير الاموى ، وطلبا اليه الاسراع بالحضور الى الاندلس ، وسافر وفد بصحبة بدر لتنفيذ ما استقر الرأى عليه ، وفى حضرة الامير فى تهارت تقدم رئيس الوفد وهو تمام بن علقمة وعرض أمارة الاندلس عليه باسم جند الشام بها وخطب قائلا :

« اجمع المسلمون الصادقون على اتمامك امير الجزيرة فيسعك ان تبنى فيها ملكا مشيد الاركان ، موطد الدعائم على اساس اقوى من الجبال ، معتمدا على عزائمهم القوية وطاعتهم الصادقة . لا ريب انك ستجد مقاومة و بعض الخطر ولكنك لست وحدك ، بل بجانبك فتيان اشداء من ابناء من فتحوا الغرب ، وشعوب ترغب فيك وتدعوك اليها ونحن جميعا نهب الى الوغى ، ونبذل الارواح فى سبيل ارتقائك الى عرش الامارة التى نلقى مقاليدها اليك ، ونحفظ بنيانها من ان يثلم »

واجاب عبد الرحمن الدعوة بخطاب جاء فيه :

« ايها السراة الامجاد . اجابة لرغائبكم . وسعيا وراء امانيكم فى اصلاح شؤون مسلمى اسبانيا اذهب معكم ، باذلا النفس فى سبيل الدفاع عن هذه الغاية الحميدة ، فاذا صدقت عزائمكم ودامت طاعتكم وفتح الله لنا باب الفوز رأيتم منى اخا ثقة يقاسمكم الشقاء والهناء » .

فرح شيوخ زناته لهذا التوفيق، وهنأوا عبد الرحمن بالمنصب الخطير، وأمدوه بسبعمائة وخمسين فارساً من فرسان تاهرت فعبر بهم البحر، ونزل بحصن المنكب على ساحل البيرة وكان ذلك فى ربيع الآخر عام ١٣٨ هـ سبتمبر سنة ٧٥٥ فى خلافة أبى جعفر المنصور

عبد الرحمن بالأندلس:

انتشر خبر دخول عبد الرحمن الاندلس بسرعة فى جميع أنحاء اسبانيا الجنوبية، فهرعت اليه وجوه القبائل وفى مقدمتهم أبو عثمان وابن خالد وكانوا يبايعونه ويلقبونه بالداخل. وفى مدة وجيزة جمعوا له عشرين ألف جندى، فأخذ ينتقل على رأس هذه القوة من أقليم إلى آخر قاصدا قرطبة، وكان رؤساء اليمنية ينضمون اليه فى أثناء المسير، وقد سلك الطريق فى زحفه من الشرق إلى الغرب فى البلاد التى يسكنها المضريون والسوريون الموالون له، وكانت المدن تفتح له أبوابها، ولما قرب من اشبيلية سارع أهلها وهم من قريش لاستقباله، والآن نتركه يزحف على قرطبة ونعود إلى أمر يوسف الفهرى ووزيره الصميل

يوسف الفهرى والصميل:

ثار عامر القرشى فى وجه يوسف وانضم اليه قرشى آخر يسمى حباب، وعملا على التخلص من يوسف ووزيره الصميل كما مر بنا، وقد نجح الثائران فى جمع الأعوان وحاربا الصميل وحاصراه فى سرقسطه، ولكن الامويين فى بلنسية وبنى قيس وبنى كلاب وبنى محارب وبنى سليم وغيرهم هبوا لانقاذه، ولما رآهم المحاصرون تخلوا عن الحصار ولاذوا بالفرار. ونجا الصميل مما كان أحاط به وطلب اليه زعماء الامويين أن يسمح لهم بمقابلة خاصة، ولما قابلوه اطلعه عبيد الله على

رسالة الأمير الأموى وسأله رأيه فيها ، فوعد الصميل بالنظر فى الأمر و إبداء الرأى فيه بعد وقت قليل ، ورجع الأمويان وأتباعهم إلى أوطانهم

أما يوسف فقد كان يجهز الجند للخروج بهم من قرطبة لمعاقبة ثوار الشمال وطلب إلى الأمويين الانضمام اليه ، وزحف حتى وصل إلى طليطلة ومنها سار إلى سرقسطه ، و بالقرب من ممرات جبال الشارة لحق به الأمويان بمفردهما وطلبا اليه أن يمهلهما قليلا حتى يجمع أنصارهم محصول الربيع ثم ينهضون لمؤازرته فى حملته التأديبية ، فأعطاهما يوسف بعض المال وقفلا راجعين ، وفى طريقهما قابلا الصميل وهو يريد اللحاق بيوسف وسألاه عما استقر عليه رأيه فى أمر عبد الرحمن ، فوعدهما أولا بالمساعدة ، ثم رجع وعدل عن الرأى وأخبرهما بأنه لا يوافق على ارتقاء عبد الرحمن عرش البلاد خوفا منه وحرصاً على مركزه فى الأندلس ، وأنذرهما بأنه سيكون من المؤازرين ليوسف ضد هذا الأمير ، فتظاهر الامويان بالموافقة على رأيه ، ورجعا إلى مقر نفوذهما وهما يضمران المضى فى خطتهما

كان على الصميل وقتئذ أن يكاشف يوسف بأمر الأمير الأموى ولكنه لم يفعل ، وجدّ يوسف فى طلب ثوار سرقسطه ووصل اليها ، ووجد أن الثائرين لاذوا بالفرار ، وتقدم اليه زعماؤهم يطلبون الصلح والأمان ، فقبل منهم على شريطة أن يقدموا له من القرشيين عامرا وابنه وهب وحبابا ، فسلموهم اليه ، فأمر بوضعهم فى الاغلال وأخذ فى محاكمتهم ثم سجنهم ، وكان من رأى الصميل أن تضرب أعناقهم ، ولكن يوسف لم يأخذ برأيه بسبب معارضة القرشيين

رجع يوسف إلى طليطلة فرحا بانتصاره على الثوار وذلك فى أواخر سنة ١٣٧ هـ ٧٥٥م ، ولكن ما لبث أن انقلب فرحه ترحا إذ فاجأه خبر دخول عبد الرحمن الاندلس وما لاقاه من ترحاب بين أهل الجنوب ، وكان وقتئذ فى وادى نهر الرمل

على بعد خمسين ميلا من طليطلة ، وعندئذ قتل الثلاثة المصفدين طعنا بالرماح ، وكان فى قتلهم أفول نجم سعده . و بزوغ شمس سعادة خصمه عبد الرحمن

الصراع بين الاميرين :

أرسل يوسف فى طلب مستشاره الصميل و أخبره بما سمعه عن عبد الرحمن فأظهر الصميل استخفافه بالأمر ، وأشار عليه بالزحف لملاقاته معتقدا أن أنصاره قليلون ، وأن هزيمة واحدة تنزل به كافية لاحباط غرضه والخلاص من شره ، فأخذ يوسف برأى وزيره واستعد للقتال

حال جيش يوسف :

ذاع فى عسكر يوسف نبأ قدوم عبد الرحمن وانضواء الجنوب تحت لوائه والتفاف الانصار حوله ، وأنهم سيدعون لقتاله ، فسخط الجند لتأخر أعطياتهم كما ساءهم قتل القرشيين ، وأنهاك قواهم فى حروب طويلة لا تنتهى ، فتسلل اليمنيون بقطع من الليل عائدين إلى بلادهم ، وطلب القيسيون و بنى معد إلى الصميل أن يؤخر الحرب الى مستهل الربيع لأن الشتاء كان منهم قريب فلم يقبل ، وأجبرهم على المسير ، ولكن السماء أمطرتهم مدرارا أثناء مسيرهم ، فرأى يوسف استحالة الاستمرار فى الزحف ، ومن ثم أمر بالعودة إلى قرطبة ، وكان يوسف يعتقد أن عبد الرحمن لا يبغى ملكا ولا جلد له على الكفاح فى سبيله ، وانما يطلب رغد العيش فى الاندلس و يمنى نفسه بأن يتزوج عبد الرحمن باحدى بناته ، و يكتفى بذلك عن خوض غمار الحروب ، فلم يكد يصل إلى قرطبه حتى أرسل بعثة إلى عبد الرحمن من خالد كاتبه وعيسى موزع أرزاق الجند وعبد الله القيسى ومعهم الهدايا ، ففاوضته البعثة فى مهمتها فأجاب عنه زعماء الأمويين ان الأمير انما جاء

فى طلب ما خلفه جده هشام من مال وعقار لا لانتزاع الامارة من يوسف ، ولم يكن هذا رأى عبد الرحمن ولكنه قبل مرغما ما ارتآه أنصاره ، فطلب إلى أبى عثمان عبد الله أن يكتب بذلك إلى يوسف ، ولكن لفظة نابية من خالد كاتب يوسف ورئيس مفوضيه لأبى عثمان عبيدالله زعيم الامويين ، وكبير حاشية الامير عبد الرحمن غيرت مجرى التاريخ : ذلك ان خالدا تفاخر على أبى عثمان ، لأنه لم يكن ماهراً فى الكتابة ولا قديرا على التحبير والتسطير ، فقال له : سترى العرق يسيل من ساعدك قبل أن تكتب ما تريد. عندذلك غير أبو عثمان رأيه وغضب لما حسبه اهانة فصاح بخالد : صه أيها الكاذب لن ترى عرقا يجرى من ساعدى لأنه لا رد على مثل هذا الخطاب ، وألقى بخطاب يوسف فى وجهه ، وضربه بقبضة يده على رأسه ، وأمر باعتقاله موثوقا بالسلاسل والأغلال ، وقال إن هذا أول انتصار لنا ، إن هذا الرجل يدير أمر يوسف ومن غيره لا يستطيع يوسف أن يعمل شيئا ، فقال عبيد القيسى : لقد علمت ان خالدا رسول ، وان الرسول لا يمسه سوء . فقال أبو عثمان: « انت الرسول ولك منا الأمان ، فسر إلى صاحبك تحرسك عناية الله »

وهكذا فشلت مهمة البعثة ، وقطعت المفاوضات وأصبح السيف هو الحد الفاصل فيمن سيؤول اليه ملك الاندلس

الحرب بين الفريقين:

انضم إلى عبد الرحمن فى هدنة الشتاء جند اليمن وقسم من البربر وستة من أمراء قيس لحزازات شخصية ، منهم جابر بن شهاب الذى قذف به يوسف إلى غمرة الحرب فى الشمال فقتل ، وحسين القرشى صاحب شهاب الذى عاد منهزماً ، وأبو بكر بن هلال العبدى لشىء فى نفسه ضد الصميل ، وثلاثة من بنى ثقيف

من قبيلة الحجاج المشهورة بولائها لبنى أمية

انقضى الشتاء وكل يوالى الاستعداد وحل الربيع فبدأ عبد الرحمن زحفه مجتازا أرض الجند اليمنيين ، فدخل أرقيدونة صبيحة يوم عيد الفطر ٨ مارس ٧٥٦ م وخطب له فيها ، ومنها ذهب إلى شدونه ، فانضم اليه أثناء مسيره ٤٠٠ من المغاربة ، وخرج بنو كنانة من معد للانضمام ليوسف ، ولما اقترب من اشبيلية انضم اليه حاكمها أبو الصباح اليحصبى وبايعه أهلها ، وعلم يوسف باقترابه من قرطبة فتهيأ لقتاله ، وسار كل على ضفة من ضفتى نهر الوادى الكبير ، وأصبح المسير سباقا للوصول إلى قرطبة والنهر يفصل بينهما ، ووقف عبد الرحمن يتهيأ للقتال فى وقفة عيد الاضحى ١٣ مايو ٧٥٦ م وقد صمم على عبور النهر والهجوم على عدوه ، وتذكر عبد الرحمن أن فى مثل يوم عيد الاضحى قد انتصر الامويون فى معركة مرج راهط على قائد فهرى يناصره وزير قيسى فقال : ليكن الغد مجددا لذكرى هذا الانتصار ، واحتال عبد الرحمن على عدوه مراوغة ، فأرسل إلى يوسف انه على استعداد لقبول الصلح ، والشروط السابق عرضها عليه ، والتى كادت أن تقبل لولا وقاحة خالد ، وانه سيعبر النهر فى وضح الغداة لابرامه ، وان حالة جنده تستوجب التعجيل فى هذا الصلح لقلة الطعام لديهم ، وانه وقد خطا إلى السلم هذه الخطوات يرجو أن يمده يوسف بمؤن تفرج من ضائقة عسكره ، وصدق يوسف ما زعم عبد الرحمن ووقع فى الشرك فأرسل أغناما وماشية ، وفى صبيحة يوم العيد كشف يوسف أمر خديعة عبد الرحمن إذ شاهد جنده يتهيئون للقتال فتهيأ هو أيضاً ، وظهر عبد الرحمن على ظهر جواد و إلى جانبه أمينه وكبير مستشاريه أبو عثمان عبيدالله يحمل اللواء ، وهجمت جيوش عبدالرحمن بعد اجتياز النهر فهزموا أعداءهم ، وفر يوسف وحليفه الصميل ناجين بنفسيهما إلى

الشمال ، واستبسل القيسيون فى القتال بعد فرار زعيمهم الصميل ، وباعوا أنفسهم غالية ، وسلب جيش عبد الرحمن معسكر يوسف وساروا مثقلين بالغنائم والاسلاب إلى قرطبة فدخلوها ظافرين ، وأسرعت جموعهم إلى قصر يوسف وقصر الصميل تسلب وتنهب ، ووقع فى يد الجند غنائم قيمة وأموال طائلة ، ولما دخل عبد الرحمن قرطبة بادر إلى قصر يوسف فمنع السلب منه وحمى من به من النساء ورأى أم عثمان زوجة يوسف ومعها ابنتاها فقالت له خذ بناصرنا كما أخذ الله بناصرك فدعا عبد الرحمن بصاحب الصلاة من اتباع يوسف وأمره أن يحتفظ بهن فى أحد المساجد ، وكان جزاء عبد الرحمن أن أهدته احدى بنات يوسف جارية تدعى حللا تزوجها ورزق منها ابنه هشاما ثانى أمراء الأمويين فى الأندلس

استتباب الأمر لعبد الرحمن وسقوط يوسف والصميل :

هرب الصميل و يوسف الفهرى و بذلا مجهود اليائس ، فجمع يوسف أهل سرقسطة وطليطلة وسار إلى مرسية فاستولى عليها ، وأسرع عبد الرحمن لملاقاته و باغت أبو زيد بن يوسف الفهرى قرطبة وهى خلو من الجند فاستولى عليها ، ولكن كل هذه الجهود كان مقضيا عليها بالفشل ، إذ لم يكد يعلم عبد الرحمن بما كان من أمر أبى زيد حتى عاد إلى قرطبة ، وأسرع أبو زيد بالهرب وأخذ معه أبا عثمان عبيد الله أسيرا ، ولم يلبث يوسف والصميل أن أدركا عقم جهودهما ضد عبد الرحمن فاستسلما اليه ودخلا فى طاعته ، وأمنهما عبد الرحمن على نفسيهما وما لهما ، وأخذ عنده أبا زيد وأبا الأسود ولدى يوسف الفهرى رهينة ، وأطلق يوسف أبا عثمان عبيد الله كما أطلق عبد الرحمن خالدا كاتب يوسف ، ودخل عبد الرحمن قرطبة فى يوليه ٧٥٦ م دخول الظافر و يوسف إلى يمينه والصميل إلى يساره . ولكن يوسف ما برح أن فر يبغى جمع أنصاره لاسترداد الملك فساء

ذلك عبد الرحمن وامر بسجن ولديه وسجن الصميل الذى اتهمه بأن له ضلعا فى فى تدبير هذا الهرب . وجمع يوسف جموع رجال مارده وعرب المغرب وسار الى أشبيلية وتردد فى حصارها وكانت عدة جيشه عشرين الفا ، فسار يبغى قرطبة ولحقه أمير أشبيليه لمناجزته تأخيرا له حتى يصل الخبر إلى عبدالرحمن فيعد للأمر عدته ، وأخذ امير أشبيلية يطاوله ويراوغه كرا وفرا ، ثم قاتله مبارزة رجل لرجل ثم حمل عليه فهزم يوسف وانتصر عبد الملك أمير أشبيلية ، وفر يوسف يريد طليطلة ولكن كشفه رجل فى الطريق وعرفه فصاح بمن حوله أن يطاردوه فلحقوا به وقتلوه ، وحمل أحدهم رأسه إلى عبد الرحمن فأمر بقتل ولده أبى زيد وإبقاء أبى الأسود سجينا ، وفى صبيحة يوم لقى القوم الصميل جثة هامدة ، والمعروف أنه مات خنقا بأمر عبد الرحمن ، ولكن عبد الرحمن تبرأ من كل ريبة وسمح للناس أن يفحصوا جثته حتى يروا أنه مات حتف أنفه نتيجة لكثرة الشراب .

عبد الرحمن أمير البلاد :

وهكذا تم الأمر لعبد الرحمن ، ومكن له فى الأرض تفرق كلمة خصومه وانقسامهم على أنفسهم ، وإحياؤهم للعصبية الجاهلية ، وبراعته فى الانتفاع بما بينهم من حزازات ، وحزمه وعزمه ، وبعد همته ، ومكره ، وخداعه ، وسياسته التى اتبعها ومزج فيها اللين بالشدة والرحمة بالقسوة ، وسعة حيلته فى مواجهة المشكلات وحل المعضلات ، على أن استتباب الأمر له لم يكن مؤذنا بانتهاء متاعبه وحلول صفو أيامه ، إذ واجهته ثورات متتابعة وخطوب بعضها إثر بعض .

الثورات الداخلية فى عهده :

أولا — ثورة طليطلة : حيث يقيم الفهريون من قبيلة يوسف فى ٧٦١ م

١٤٤ هـ ثار هشام بن عزرة زعيم الفهريين ، واستمرت ثورته سنتين ، ولكن عبد الرحمن تمكن من اخمادها ٧٦٣ م وصلب عبد الرحمن زعماء الثورة عبرة لغيرهم .

ثانيا — حملة علاء بن مغيث والى أفريقية :

أرسل المنصور إلى الأندلس العلاء بن مغيث واليا على أفريقية وأمره أن أن يزحف على رأس حملة لاسترداد الأندلس إلى حظيرة الدولة العباسية ، فنزل باقليم باجة ، ورفع العلم الأسود ، علم بنى العباس ، ولم يكن معه جيش ، ولكن القبائل المتطاحنة ، وبخاصة القبائل الموتورة من بينها أسرعت للانضمام اليه ، فحاصر قرمونة ، واشتد الأمر بعبد الرحمن ، ولكن شجاعته لم تخنه فى مأزقه هذا إذ خرج من أشبيلية ، واختار ٧٠٠ من شجعان جنده ، وأوقد نارا ، وقال :

يا قوم ليس لنا إلا أحد أمرين أما موت وأما حياة ، وهذا غمد سيفى أرمى به إلى النار ، وأنى لأفضل فخار الموت فى ميدان القتال على عار الفرار ، واقتدي به من حوله ثم انقضوا على المحاصرين وهاجموهم هجوما عنيفا فهزموا وولوا الأدبار وقتل قائدهم أبو العلاء و ٧ آلاف من جنده ، ووضع عبد الرحمن رأس أبى العلاء ورءوس زعماء جنده فى حقيبة وفى أذن كل رأس رقعة عليها اسم صاحبها ، واستأجر رجلا من تجار قرطبة ليحمل الحقيبة إلى مكة : وكان المنصور يحج اليها إذ ذاك ، ولما علم المنصور بما كان قال : الحمد لله الذى جعل بينى و بين صقر قريش هذه البحار الواسعة

ثالثا — ثورة أهل اليمن بالأندلس :

ثار اليمانيون مطالبين بثأر العلاء بن مغيث ومن قتل معه من رجال ، وتغلب

الثوار على أشبيلية وشدونه ، ونهض عبد الرحمن لمقاتلة الثوار وطاردهم مطاردة عنيفة ، وضيق عليهم الخناق فى الأماكن التى تحصنوا بها ، وقتل كثيراً من زعمائهم ، وأمن الباقى وعاد إلى قرطبة فى عام ١٤٩ هـ ٧٦٦ م منتصرا .

رابعاً — ثورة أبى الصباح اليحصبى :

ما أشبه الليلة بالبارحة وما أشبه ما فعله عبد الرحمن مع أبى الصباح بما فعله المنصور مع أبى مسلم ، كان أبو الصباح يمن على عبد الرحمن أن انضم اليه فى مسيره إلى قرطبة وسلم اليه أشبيلية ، ولكن عبد الرحمن كان يرتاب فى حسن ولائه فأبعده إلى أشبيلية وجعله حاكما عليها ثم عزله من منصبه ٧٦٦م ، فاستنفر قومه لنصرته فهبوا جميعا للقتال ، وخشى عبد الرحمن سوء العاقبة فلجأ إلى الخداع فأرسل أمانا لأبى الصباح واستدعاه إلى قرطبة للنظر فى مظلمته ، وسار أبو الصباح فى أربعمائة من رجاله تركهم بباب القصر ، ثم دخل لمقابلة عبد الرحمن وأغلظ أبو الصباح القول لعبد الرحمن وعنفه على ما كان من سوء معاملته له ، فاشتد الغضب بعبد الرحمن وأراد أن يطعن أبا الصباح ولكن هذا أفلت من الضربة فاستدعى عبد الرحمن الجند فقتلوه ، وكان عبد الرحمن قد تآمر مع جند أبى الصباح قبل الاقدام على قتله ، واستاء من هذا الغدر ابن خالد وزير عبد الرحمن وهو الذى حمل الأمان لأبى الصباح فاعتزل منصبة ورفض العودة إلى الوزارة مرارا رغم إلحاح عبد الرحمن عليه فى ذلك .

خامسا — ثورة البربر :

ظهر فقيه من البربر يسمى محمد بن عبد الله وادعى أنه من نسل فاطمة من قبيلة مكناسة الضاربة فى شرق الأندلس ، وكان من المجتهدين فى البحث فى الدين

والأحاديث والتفسير ، واشتغل بمهنة التعليم وثارت معه مكناسة ، فزحف إلى الاقليم الواقع بين نهرى الوادى اليانع والتاجه واستولى على ما رده واقليم ريه وماحولها ، وسار إلى طليطلة فانضم إليه عرب المغرب من اليمانيين ، وهزم جيوش أبى عثمان عبد الله حاكم الاقليم مرارا ، ونهب معسكره واعتصم بالجبال واستفحل أمره ودامت ثورته عشر سنوات وعبد الرحمن لا ينال منه منالا ، وقام أنصار أبى الصباح زعيم اليمانيين بهجوم مفاجىء على قرطبة أثناء انشغال عبدالرحمن بحرب محمد بن عبد الله فعاد اليهم عبد الرحمن وشتت شملهم وقتل منهم ثلاثين ألفا ، ثم واصل هجماته على جيش محمد بن عبد الله حتى أخمد الثورة بعد أن قتل محمدا رجل من أتباعه

سادسا: اجتماع عصبة المتآمرين وانضمام شرلمان اليهم:

تآمر سليمان بن يقظان الاعرابى الكلبى حاكم برشلونة وعبد الرحمن بن حبيب صهر يوسف الفهرى وأبو الأسودين وكان قد فر من سجن عبد الرحمن الداخل بعد أن تظاهر بالعمى على ئل عرش عبد الرحمن ، وبلغ من شدة مقتهم له أن استعانوا ٧٧٧م بشرلمان ملك الفرنجة والدأعداء المسلمين، وقابلوه عبر الحدود ٧٧٧ م فلم يتردد شرلمان فى الانضمام اليهم ، إذ كان إذ ذاك مطاق اليدين فى مشروعاته الحربية خاليا من المشاغل نظرا لخضوع السكسون واعتناقهم المسيحية وهرب زعيمهم و يتكند إلى بلاد الدنمرك ملتجأ الى اميرها . وتقرر ان يعبر شرلمان الحدود حيث ينضم اليه الاعرابى وحلفاؤه فى شمال نهر ابرو معترفين بسلطانه عليهم ، وأن عبد الرحمن بن حبيب المعروف بالصقلبى يجند البربر من أفريقية و يعبر بهم البحر إلى الأندلس رافعا العلم الأسود ، داعيا الناس الى الدخول

فى طاعة الخليفة العباسى حليف شرلمان ، ولو تم للمتآمرين ما بيتوه لعبد الرحمن لقضوا عليه قضاء مبرما ، ولـكن من سعد طالع عبد الرحمن ان طرأ على خطط المتآمرين ما افشلها . فان عبد الرحمن بن حبيب الصقلبى ابحر بجيش من البربر إلى اقليم مرسيه قبل ان يجوز شرلمان الحدود ، ولما طلب مساعدة الاعرابى أجابه هذا : ان الخطة المتفق عليها ان يظل فى الشمال لمساعدة جيش شرلمان ، فأحنق هذا الجواب عبد الرحمن بن حبيب الفهرى الشهير بالصقلبى ، ووجه من وقته جيشه لقتاله فصده الاعرابى واعاده الى مقاطعة تدمير حيث قتله بربرى من اتباعه المغاربة ، وذلك بإيعاز من عبد الرحمن الداخل امير الأندلس . فلما عبر شرلمان جبال البرانس بعد ذلك ٧٧٧ م كان حلفاؤه قد تفرق جميعهم ولم يبق منهم على ولائه له غير الاعرابى وحليفيه ابو ثور حاكم وشقه وجلندر كونت سردانية وانضم اليهم الحسين بن يحيى الانصارى من نسل سعد بن عبادة الذى استولى على سرقسطة ، فلما اقترب منهـا كبر على أهلها أن يدخل مدينتهم ملك الفرنج ونقموا على الاعرابى سعيه فى نصرة المسيحيه على الاسـلام ، وكبر على الحسين أن يسقط قدر نسبه وعراقة حسبه ، ولما لم يستطع الاعرابى أن يقنعهم بالانضام الى شرلمان وكان يخشى ان يسىء شرلمان الظن به القى بنفسه بين يديه ، وعندئذ تجهز شرلمان لحصار سرقسطة . و بينما هو يحاصرها بلغه خبر عودة و يتـكند من منفاه وانضمام قبائل السكسون اليـه ونقضهم الصلح المعقود بينهم و بين القوط واكتساحهم للبلاد حتى ضفة نهر الرين يقتلون و يحرقون و يخربون ، فاضطر شرلمان الى الاسراع فى المسير من الابرو الى الرين ، و بينما هو يجتاز وديان رونسفال المشجرة المحفوفة بسلاسل الجبال الشاهقة انقض عليه مسيحيو متقاطعة باسك واوقعوا بمؤخرة جيشه فأفنوها عن بكرة أبيها وجمعوا الاسلاب وفروا هاربين ، وهكذا ختمت المؤامرة

اسوأ خاتم بعد إذ بدأت بالآمال العريضة ، وعادت على من اشتركوا فيها بالوبال ، وحاق بهم ما كانوا يمكرون ، وأسرع عبد الرحمن الداخل فى انتهاز الفرصة السانحة للقضاء على أعدائه الخائنين ، فزحف عجلا على سرقسطة وكر العصاة ، وكان قد عاد اليها الاعرابى فعدم الحسين بن يحيى الانصارى خائنا لدينه وقتله فى المسجد فلما جاء عبد الرحمن امير الاندلس لحصار سرقسطة سلمها اليه الحسين وعفا عنه عبد الرحمن ، لكنه مالبث ان غدر وثار مرة أخرى فأسلمه اهل سرقسطة لعبد الرحمن وهذا أمر به فقطعت يداه ورجلاه وضرب حتى مات ، ومن سرقسطة زحف عبد الرحمن على إقليم الباسك واخضع سكانه وفرض عليهم الجزية ، والتقى بعد ذلك بجيش ابى الأسود بقية العصابة المتآمرة ، وكانت بينهما معركة دموية قتل فيها من اصحاب ابى الأسود الفهرى اربعة آلاف كانت اشلاؤهم اقواتا للسباع والنسور ، واسر عبد الرحمن ابا الأسود فأمر بقتله

وهكذا خرج عبد الرحمن من كل حروبه ظافراً منصوراً و أقام لنفسه ملكا أكسبه رهبة الجانب ، على أنه تغالى فى شدته حتى فرق من حوله القلوب ، فمن ذلك عزله أباعثمان عبيد الله ، ونفيه مولاه بدرا إلى الحدود ، وقبضه على زعماء الأمويين وقتلهم لتآمرهم عليه ، وكذلك قتله هزيل بن الصميل للسبب نفسه ، ولما خشى على حياته من كيد الكائدين كان لايخرج من قصره معظم أيامه ، و إذا خرج أحاط نفسه بحرس من البربر المرتزقة ، على أن شدته الاضطرارية هذه كانت وليدة ظروفه القاسية ، ولقد أقام دولته بالسيف فانشأ جيشاً عدده ٤٠ ألفاً من البربر والمماليك يدين له بالولاء ولكنه كان لا يبالى بمصلحة الشعب ولا بمنفعة البلاد .

فكان حكمه صراعا بين الملكية الاستبدادية و بين العرب الذين لا يميلون إلا لنظم قبائلهم وعاداتهم الديمقراطية

رأى أبى جعفر المنصور فى عبد الرحمن :

وقد ذكر أن أبا جعفر المنصور قال يوما لبعض جلسائه أخبرونى من صقر قريش من الملوك ؟ قالوا ذاك أمير المؤمنين الذى راض الملوك وسكن الزلازل وأباد الأعداء وحسم الأدواء ، قال ما قلتم شيئا ، قالوا فمعاوية قال لا ، قالوا فعبد الملك بن مروان قال ما قلتم شيئا ، قالوا يا أمير المؤمنين فمن هو ؟ قال صقر قريش عبد الرحمن بن معاوية الذى عبر البحر وقطع القفر ، ودخل بلداً أعجمياً منفردا بنفسه ، فمصر الأمصار وجند الأجناد ، ودون الدواوين وأقام ملكا عظيما بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدة شكيمته ، ان معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان وذللاله صعبه وعبد الملك ببيعة أبرم عقدها .

ولعبد الرحمن شعر رقيق فمما قاله يتشوق إلى معاهده بالشام

أيها الراكب الميمم أرضى ... أقر من بعضى السلام لبعضى
إن جسمى كما علمت بأرض ... وفؤادى ومالكيه بأرض
فارق البين بيننا فافترقنا ... وطوى البين عن جفونى غمضى
قد قضى الله بالفراق علينا ... فعسى باجتماعنا سوف يقضى

ورأى مرة فى إحدى حدائق قرطبة نخلة منفردة فقال

يا نخل أنت فريدة مثلى ... فى الأرض نائية عن الأهل

هذا ولم يكن تتابع الثورات حائلا دون سعيه فى ترقية بلاده فى الزراعة والعلم والعمران ، و بلغت قرطبة فى عهده شأواً بعيداً فى الحضارة والعلم والفلسفة والطب حتى أصبحت منتجع القصاد من طلاب العلوم من أسبانيا ومصر والشام والعراق ، وكانت بها شوارع متسعة ومبان ضخمة وقصور مشيدة وحمامات وفنادق

و بساتين على ضفة الوادى الكبير ، وجوامع ومدارس فأصبحت تضارع بغداد في العظمة والشهرة ، وفى سنة ١٧٠ هـ — ٧٨٦ م شيد عبد الرحمن جامع قرطبة الشهير الذى تضل العين فى وصف بدائعه ، وأنفق على عمارته ١٠٠ ألف دينار عدا ٨٠ ألف دينار دفعها ثمناً لكنيسة كانت مكانه ، وقيل فى وصفه ان به ٣٦٥ طاقة على عدد أيام السنة ، و إن الشمس تدخل كل يوم من طاق ، وأن به تنورا من نحاس أصفر يحمل ألف مصباح ، ومصحفا من القرآن كتبه عثمان بن عفان

وفاته

ولما أحس عبد الرحمن بقرب منيته دعا إلى حضرته الحاجب وقاضى القضية ووزراءه وغيرهم من وجوه القوم وعمال الأقاليم وأشهدهم على أنه عهد بالولاية بعده الى ابنه هشام فبايعوه على ذلك ، ومات عبد الرحمن عام ١٧٢ هـ — ٢٨٨ م

الفصل الثانى

هشام بن عبد الرحمن (١٧٢ — ١٨٠) هـ (٧٨٨ — ٧٩٦) م

تولى الامارة بعد وفاة أبيه وعمره ٣٣ سنة ، ولقد كان والياً على ماردة عند وفاة والده ، وكان أخوه الأكبر سليمان والياً على طليطلة ، وكان أخوه عبد الله حاضراً فى قرطبة وهو الذى صلى على أبيه ثم ذهب الى قصر الامارة مؤملا أن يقبل عليه كبار القوم و يحيوه بتحيات أمير جديد فلم يحم حول القصر منهم أحد ولما تحقق أن رغبات الأهلين منصرفة عنه الى أخيه هشام ولى العهد رأى من الحكمة أن يجدد البيعة لأخيه ، وكتب اليه ينعى أباه وطلب اليه الحضور الى قرطبة ليتسلم زمام الامر فيها ليذهب هو الى ماردة بدلا عنه

أسرع هشام الى مقر الامارة وتسلم مقاليد الحكم فى البلاد ، وسار فيه سيرة عمر بن عبد العزيز ، واشتهر بالتقوى والعدل والكرم اذ قضى على الرذائل وعاقب مرتكبيها بأشد العقوبات ، وواسى المرضى وعاون المعوزين وكثيرا ما شارك الأهلين فى أفراحهم ومآتمهم فأحبه الناس حباجما ولقبوه بالعادل و بالرضى وكان يبعث بقوم من ثقاته الى الاقاليم فيسألون الناس عن سير عماله وحقائقها فاذا انتهى اليه حيف من أحدهم أوقع به وأسقطه ، وكان فوق ذلك حكيما حازما فقمع الفتن ، وساد الأمل فى عصره ، وأتم بناء الجامع الكبير الذى أسسه أبوه ، و بنى عدة مساجد أخرى وزين قرطبة بالمبانى الشاهقة الفخيمة ، وجدد قنطرتها التى بناها السمح بن مالك الخولانى

الثورات فى عهده :

أولا : خروج أخويه . غضب سليمان غضبا شديدا عند ما علم ببيعة هشام إذ كان يطمع فى الامارة لنفسه ، وكتب إلى أخيه عبد الله يستقدمه من ماردة إلى طليطلة ليتفقا على نبذ الطاعة وشق عصاها فى وجه أخيهما ، واتفق الاخوان أن يستقلا فى أقليميهما و يتصرفا تصرف الحاكم المطلق بدون ارتباط بالأمير ، فلما عارضهما وزير طليطلة غالب بن تمام فيما اتفقا عليه سجنه سليمان ، وعلم الأمير بذلك فأرسل رسولا إلى طليطلة يسأل سليمان عن سبب سجن الوزير فكان الجواب إن جاء بالمسجون وخذقه أمام الرسول ، وقال له :

« قل لمولاك يدعنا نحكم فى اقليمينا أحراراً جزاء ما ألم بنا من الضرر من أمارته »

فغضب هشام وكتب إلى ولاة الأقاليم وقضاتها يخبرهم بخروج أخويه عليه وأمرهم بالمحافظة على مدائنهم وحصونهم من اعتدائهما ، وألا يطيعوا لهما أمراً ، وألا يسمحوا لهما بالايواء اليهم ، ثم جهز عشرين ألف جندى وزحف على طليطلة ، واستعد سليمان بدوره وجمع جيشاً زحف به على قرطبة تاركا ابنه وأخاه ليدافعا عن طليطلة ، والتقى الجيشان بالقرب من حصن بلخ ودارت بينهما معركة دموية رجحت كفة القتال فيها إلى جانب هشام ، فتقدم إلى طليطلة وحاصرها ودافع عنها عبد الله دفاع المستميت ولكنه اضطر إلى طلب الصلح عند ما نفذت المؤنة وضعفت عزائم الأهلين ، وقبل هشام الصلح وعفا عن أخيه ، ودخل المدينة ظافراً وأقام أحد أقارب الوزير غالب عاملا عليها ، وأسكن أخاه عبدالله قصرا فى ضواحيها ثم عاد الى قرطبة ليعد العدة فى اخضاع سليمان وكان ذلك ١٧٣ هـ .

جمع سليمان فلول جيشه بعد هزيمة بلخ ونزل على قرطبة واحتل قلعة شقنده فخرج اليه عبدالله بن عبدالملك المروانى وقاتله وأخرجه من القلعة، ففر الى الجبال ثانية وأرسل الى وزير ماردة وكبارها مستنجدا ، ولكنهم بدلا من الخروج لمعاونته خرجوا لمطاردته وطردوه الى أرض تدمير ، وفيها حاول أن يجمع الانصار والجند فأرسل اليه هشام جيشا على رأسه ابنه الحكم وكان شابا فى مقتبل العمر ، وسار الحكم وتقابل مع قوات عمه ونازلها بالقرب من لورقة و بدد شملها وانتصر عليها نصرا مبينا ، وفر سليمان ومعه بعض الفرسان الى بلنسية ومنها الى دانية ثم ألقى بنفسه الى جزيرة شقر وهى محل حصين ، وهناك كتب الى أخيه يطلب الصلح فأجابه اليه بشرط ان يترك الاندلس و يأخذ ماله وستين الف دينار مصالحة على تركة ابيه ، فرضخ سليمان ورحل عن اسبانيا الى المغرب وسكن مدينة طنجة وذلك فى اوائل سنة ١٧٤ هـ ٧٩٠ م

ثانيا : الثورة فى طرطوشة و برشلونه :

انتهز سعيد بن الحسين بن يحيى الانصارى (بشاغنت من اقليم طرطوشة فى شرق الاندلس) فرصة الحرب بين هشام واخويه وثار فى وجه الأمير واجتمع حوله خلق كثير وزحف على طرطوشه وامتلكها واخرج عاملها يوسف القيسى ، فلما بلغ هشاما الخبر ارسل الى والى بلنسية امرا بالزحف على سعيد واخراجه من طرطوشه ، فزحف وقاتله بالقرب من المدينة وتغلب عليه وقتله ثم استرد المدينة فى اواخر عام ١٧٢ هـ ٧٨٩ م

أما فى برشلونة فقد خرج فيها مطروح بن سليمان بن يقظان عام ٧٩٠م والتف حوله نفر كثير ، وزحف على سرقسطة وملكها وتغلب على وشقه وأصبح سيد تلك

الجهة ، فبعث هشام أمرا إلى والى بلنسيه الجـيد المسمى عبدالله بن عثمان لينهض لمحاربته فأطاع الأمر وزحف على رأس قوة كبيرة وقابل الثائر على ضفاف نهر الأبرو وقاتله وانتصر عليه ، وفر مطروح وقد قتل بعد ذلك بيد اثنين من أعوانه فاستراح الأمير من شره . وهدأت البلاد وانتشر السـلام فى ربوع الاندلس العربيـة فاستطاع هشام أن يلتفت لمحاربة أعداء البلاد من الفرنج ونصارى الاسبان .

ثالثاً : حروبه الخارجية :

طلب هشام إلى ولاة الأقاليم ووجوه القوم فى الاندلس القيام إلى الجهاد بخيلهم ورجالهم وسلاحهم ضد أعداء البلاد ، فلبوا دعوته وجمعوا الجيوش فى أوائل ١٧٥ هـ ، فأخذ يرسل هذه القوات بعضها إلى الحدود لرد البلاد التى استولى عليها هؤلاء الاقوام ، و بعضها إلى داخل بلادهم للاستيلاء عليها ، وفى سنة ١٧٦ هـ زحف أبو عثمان إلى إلبة والقلاع والتقى بالاعداء وهزمهم وقتل عدداً كبيرا منهم ، وكذلك زحف يوسف بن بخت على جليقية وحارب برمود ملـكها وهزمه ، وفى السنة التالية أرسل جيشا عرمرما تحت قيادة وزيره عبدالملك بن عبدالواحد إلى أرض الفرنجة لمحاربة شرلمان الذى كان مشتغلا بمحاربة اللمبرديين وقتئذ ، ودخل القائد العربى اقليم سبتمانيا ومنها تقدم إلى البلاد الفرنسية حتى وصل إلى مدينة نربونة واستولى على كل ماقابله من المدائن ، ثم جاس البلاد شهورا يخرب الحصون ويحرق ويغنم والسكان يفرون أمامه طالبين النجاة ، ثم رجع ومعه غنائم واسعة من الذهب والفضة والانسجة النفيسة ، و بلغ خمس هذه الغنائم الذى كان باسم الأمير ٤٥ ألف مثقال من الذهب العين ، وقد فرح أهل قرطبة بهذا الفوز المبين ، وحبس

الأمير الحكم على بناء الجامع الكبير فى قرطبة وهذه الغزوة من أشهر غزوات المسلمين

هذا وقد ذكر ابن الاثير فى حوادث سنة ١٧٩ هـ « ان هشاما صاحب الاندلس سير جيشا كثيفا عليه عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث إلى جليقية فساروا حتى انتهوا إلى أستورقة ، وكان ادفونش ملك الجلالقة قد جمع وحشد ، وأمده ملك البشكنس وهم جيرانه فصار فى جمع عظيم ، فاقدم عليه عبد الملك فرجع إدفونش إلى جليقية وتبعهم عبد الملك يقفو أثرهم ويهلك كل من تخلف منهم فدوخ بلادهم واوغل فيها يغنم ويقتل ويخرب ورجع سالما »

وكان قد سير هشام جيشا آخر من ناحية اخرى فدخلوا ايضا على ميعاد من عبد الملك فخربوا ونهبوا وغنموا ، فلما ارادوا الخروج من بلاد العدو اعترضهم عسكر الفرنج فنالوا منهم وقتلوا نفرا من المسلمين وعاد الباقون سالمين .

ذكر مؤرخو الفرنج هذه الغزوة فى حوادث سنة ١٧٨هـ ٧٩٤م ، وذكروا فيها ان المسلمين خسروا وهم راجعين مثقلين بالغنائم خسارة كبيرة ، وقتل عدد من شجعانهم منهم يوسف بن بخت الذى كان يقود فرقة من جند المسلمين ، واسترد النصارى الغنائم التى كانت معهم ، ويظهر ان هذه الغزوة بدأت فى اواخر سنة ١٧٨هـ وانتهت فى السنة التالية وهى آخر غزوة غزاها هشام

ازدياد نفوذ الفقهاء فى عهده :

اشتهر هشام بالتقوى والصلاح كما تقدم ، فقرب اليه الفقهاء والادباء وقوى نفوذهم وكثر تدخلهم فى مصالح الدولة مما ادى الى صراع عنيف بين السلطتين الزمنية والدينية بعد وفاته مما ستفصله بعد .

وقد نبغ فى الشعر فى عصره عامر بن أبى جعفر ، واشتهر بالفقه زياد بن عبد الرحمن الذى رحل الى الشرق ليتلقى الموطأ عن مالك بن أنس ، ثم عاد إلى الأندلس فأدخل هذا المذهب فيها تحت كنف الأمير ورعايته ، وكان مذهب الاوزعى هو السائد فى البلاد قبل ذلك

وفاته :

فى عام ١٧٩ هـ ٧٩٥ م جمع هشام فى القصر الحاجب والوزراء وقاضى القضاة والولاة والخطباء وأعلنهم بأن ابنه الحكم هو ولى العهد بعده ، ثم مرض هشام فى أوائل عام ١٨٠ هـ ومات فى شهر صفر من السنة عينها بعد مرض قصير ، وحكمه لم يدم إلا سبع سنين قمرية وتسعة أشهر وثمانية عشر يوما .

الفصل الثانى

الحكم بن هشام (١٨٠ — ٢٠٦ هـ) (٧٩٦ — ٨٢٢ م)

تولى الملك بعهد من أبيه فى شهر صفر عام ١٨٠ هـ (إبريل سنة ٧٩٦ م) وكان فى السنة الخامسة والعشرين من عمره ، وقد اختلف المؤرخون فى وصفه ، فمنهم من قال إنه كان عالما فطنا فصيحا شاعرا صارما حازما متكبرا سريع الغضب قاسى القلب، ومنهم من قال إنه كان طاغيا مسرفا ومستهترا ، له آثار سوء قبيحة، واليك أعماله لتتعرف منها أى الصفات تصدق عليه

الاضطرابات الداخلية فى عهده :

اختار الحكم عبد الكريم بن عبد الواحد كبيرا لوزرائه (حاجبا) لانه كان رفيق صباه وكان يعجب به لأمانته وشجاعته ، ولكنه ما لبث أن واجهته الاضطرابات من كل جانب فنهض لأخمادها بكل قوة وحزم

أولا : خروج عميه سليمان وعبد الله :

كان سليمان يعيش فى طنجه منذ عام ٧٩٠ م كما مر بنا ، وفيها كثرت أتباعه وازدادت ثروته ، وأصبح فى تلك الأقاليم نافذ الكلمة مهيب الجانب ، وعاش عبد الله بضواحى ظليطلة بعد أن تصالح مع هشام ، وفى تلك الجهة كون له حزبا قويا على رأسه عبيد الله بن حمزة ، والتزم الاخوان الهدوء والصمت طوال المدة الاخيرة من عصر الامير هشام ، فلما توفى واعتلى ابنه الحكم كرسى الامارة ظنا أن الفرصة قد سنحت لاغتصاب العرش من ابن أخيهما ، ونهض عبد الله

للعمل وأسرع بترك الاندلس لمقابلة سليمان بطنجة ، وهناك اتفق الاخوان على منازعة الحكم واثارة الاضطرابات فى أنحاء أسبانيا ، واعتمدا على مخالفة شرلمان لتحقيق مأربهما ، وتنفيذا لهذه الخطة سافر عبد الله إلى مدينة إكس لاشابل عاصمة شرلمان وقابل هذا العاهل العظيم عام ٧٩٧ م ، وكشف له عن نيته فرحب بالفكرة ولبى الطلب من فوره إذ رأى من وراء قيام الثورة فى بلاد الاندلس العربية تحقيقا لمطامعه القديمة ، وهى اضعاف المسلمين وكسب الشهرة والقوة بين ملوك النصرانية نتيجة لذلك .

استدعى شرلمان ابنه لويز من ولاية أكوتين ، وأرسل إلى الفونس ملك استورية وجليقية واتفق معهما على امداد عبد الله بالقوات التى يحتاج اليها ، وفى الوقت نفسه يزحف كل منهما على أملاك المسلمين بالاندلس من جهة الشمال والشرق ، وقامت الثورات فى عدة جهات من اسبانيا فى آن واحد ، واستطاع عبد الله أن يستولى على ابواب وقصر طليطلة فى خريف سنة ١٨١ هـ ٧٩٧ م ، وزحف سليمان على رأس جيش كبير على البلاد من جهة الجنوب ، واجتاز لويس بجيشه الثغور واستولى على تربونه وجيرونه ، وهدد مدن الحد الشرقى وخضعت له بنبلونه ووشقة ولاردة ، واعلنت برشلونه الثورة وسلمها الثوار الى رسل شرلمان ، وبلغت أخبار هذا العصيان مسامع الامير فلم يفقد توازنه ونهض بقلب ثابت لمكافحة الثورات ، وأمر بتعبئة الجيوش ووجه بعضها لمقاتلة سليمان وصده ومنعه من الاتصال بقوات أخيه عبد الله ، وقاد هو بنفسه جيشا وزحف به على طليطلة ثم ترك قيادة هذا الجيش إلى قائد قدير يسمى عمروسا قائد طلبيرة ، واتجه على راس قوة اخرى نحو الحدود ، وحارب الفرنج واسترد وشقة ولاردة وبرشلونة وجيرونة ثم واصل زحفه ودخل ارض فرنسا ، واستولى على تربونة وفتك بالأفرنج فتكا

دريعا واسر وغنم غنائم وفيرة ورجع إلى قرطبة ، ودخلها دخول الظافر ولقب بالمظفر

التفت بعد ذلك الى محاربة عميه حول طليطلة وضيق عليهما الخناق ففرا امامه الى ارض تدمير عام ١٨٣هـ ، فسير عليهما الجيوش وظلت الحرب قائمة بينهما لمدة عام آخر ، واظهر فى اثنائها سليمان واخوه عبد الله شجاعة ليس فوقها شجاعة ، واخيرا انتهت هذه الحروب الطاحنة بانتصار الحكم على عميه اذ قتل سليمان فى احدى المعارك عام ١٨٤هـ ، وطلب عبد الله الصلح فقبل الحكم منه ما طلب وصالحه عام ١٨٦هـ ، واجرى عليه مرتبا يتناسب ومركزه الاجتماعى وبذلك انتهت هذه الثورة

اما فى طليطلة فقد نجح عمروس فى القضاء على الثورة فيها فى سنة ١٨٤ هـ وقبض على زعيم الثوار عبيده بن حمزه وقطع راسه وارسلها الى قرطبة ، واقام ابنه يوسف محافظا عليها ، واسرع بالقوات التى كانت معه لمعاونة الامير فى حربه ضد عميه

إغارة الفرنج الثانية :

انتهز الفرنج فرصة اشتغال الحكم باخماد ثورة عميه وقرر لويس حاكم اكوتين إرسال حملة على الاندلس فى ٧٩٨م ، وزحفت جيوش الفرنجة واستولت على جيرونه وغيرها من المدائن وأقامت قلاعا قوية على الحدود ، ثم نزلت على اسبانيا فى سنة ٨٠٠م واتجهت نحو برشلونه ، ونهض زيد محافظها واستقبله باجلال وتعظيم ولكن لم يسلمه المدينة ، فزحف لويس على لاردة ووشقه ، وهاجمها وأخذها ثم خرب عدة قصور وقلاع على الطريق بين لاردة ووشقة ، ولما جاء الشتاء رجع إلى

بلاده ليستعد للزحف ثانية على برشلونة ، وفى السنة التالية زحف على رأس جيش كبير وحارب المسلمين ودافع أهل برشلونه عن مدينتهم دفاع المستميت ولكن الفرنج تغلبوا عليهم واستولوا على المدينة عام ٨٠١ م ١٨٥ هـ . بعد حصار دام سبعة أشهر

نهض الحكم لمحاربة الفرنج وحلفائهم من زعماء المسلمين وسار بنفسه إلى شرق اسبانيا ومعه قائد فرسانه محمد بن مفرج واسترد مدينة سرقسطة ، ثم توجه إلى مدن الحدود الأخرى ليستردها وأخذ تطيلة وأقام يوسف بن عمروس قائدا له وكان قد ترك طليطلة بسبب ثوران أهلها فى وجهه لقسوته وقلة درايته بأساليب الحكم ، ثم تقدم الأمير واحتل بنبلونه ونزل على شاطىء نهر الابرو واستولى على وشقة ، ثم سار إلى طرقونه ودخلها وطارد بهلولا قائدها الثائر وتغلب عليه وقطع رأسه فى ١٨٨ هـ ٨٠٤ م

اما برشلونه فلم يستطع الاستيلاء عليها بسبب ضعف قوته التى نالها التعب والاعياء نتيجة للحروب الطويلة التى اشتبكت فيها مع الثوار المختلفين ، وقد رجع الامير الى قرطبة فى اوائل سنة ١٨٩ هـ ٨٠٥ م

علاقته بالادارسة :

استطاع ادريس ان يفر من وجه الهادى واسس له امارة ببلاد المغرب واتخذ مدينة وليلى عاصمة له ، فأرسل الية الحكم وفدا يهنئه بالامارة وطلب اليه التحالف على من يناوئهما فقوبل الوفد بالحفاوة والاجلال ، وعقدت المعاهدة بين الأميرين .

مذبحة الحفرة :

رجع عمروس إلى طليطلة وحكمها من قبل الأمير بعد أن ثارت فى وجه ابنه يوسف ، وعزم على التخلص من زعمائها وكبار القوم فيها ، ودبر لذلك مؤامرة أحكم تنفيذها ، إذ انتهز فرصة زحف جيش على أسبانيا الشرقية على رأسه عبد الرحمن بن الحكم لأخضاع الثائرين فى تلك الجهات ، وطلب إلى الأمير الشاب أن يعرج على المدينة ليكرمه فيها ، فقبل الأمير الدعوة وتوجه إلى طليطلة لحضور المأدبة ، وأوعز عمروس وحرسه بأن يقبضوا على الزعماء المدعوين ، ويأخذوا كل مدعو ويقودوه إلى حفرة حيث تقطع رقبته ويرمى بها فيها، وقد نفذ الحرس أوامر سيدهم وقتلوا بهذه الطريقة الشنيعة عددا كبيرا من وجوه طليطله وأشرافها ، فكانت مذبحة عظيمة أراحت الحكم فترة من الزمن من ثورات طليطله المتكررة ، ولكنها تركت أثرا سيئا فى نفوس الطليطليين وترقبوا الفرصة السانحة للانتقام من أمير قرطبة ، وقد اختلف المؤرخون فيما بينهم عما إذا كان الامير الشاب قد علم بأمر هذا التدبير قبل وقوعه أم عرفه بعده ، وغضب على عمروس وانتقد غدره ، وستقوم طليطله بثورة فى عصر عبد الرحمن القادم ليثأروا لمن ذبحوا على يده فى عصر أبيه .

مؤامرة قرطبة :

أورد دوزى المؤرخ الشهير خبر هذه المؤامرة فى حوادث عام ٨٠٥ م على الصورة الآتية :

اتفق يحيى بن يحيى وعيسى بن دينار وفقهاء آخرون و بعض الأعيان على خلع الحكم وتولية ابن شماس ابن عم الامير عرش أسبانيا العربية ، وفاتحوه فى

الأمر فطلب اليهم أن يعرفوه أسماء أنصارهم حتى يرى إذا كان من الممكن الاعتماد عليهم ، فأجابوه إلى ما طلب ووعدوه بأن يعودوا اليه فى وقت معين ، ولما خرجوا من عنده أسرع لمقابلة الحكم سرا وأبلغه الامر ، فغضب الحكم وارتاب فى الامر وثار فى وجه ابن شماس ، فسأله هذا أن يرسل معه نفرا ممن يثق بهم ليسمعوا أسماء المتآمرين فى الموعد المضروب ، فأجابه الحكم إلى ما طلب وأرسل اليه كاتب سره وخادمه الخاص ، وفى الليلة المعينة ذهب من ائتمروا إلى ابن شماس وسألهم عن أسماء باقى المؤتمرين فذكروا له الاسماء ، وكان كاتم السر يكتب كل اسم يذكر من وراء ستار ، واستمر الكاتب يكتب حتى وقعت منه حركة أفهمت الحاضرين أن ابن شماس غدر بهم فقاموا مذعورين وخرجوا فارين وفر يحيى وزميله عيسى إلى طليطلة ، وقبضت الحكومة على اثنين وسبعين من المتآمرين وصلبتهم

ذكر بعض المؤرخين خبر هذه المؤامرة على صورة أخرى وفى تاريخ آخر فقال كندى ورومى أن من صلبوا كانوا ثلثمائة وأن الحادثة وقعت عام ٨٠٦ م و ١٩٠ هـ وأن من كانوا اختاروه ليكون أميرهم هو قاسم بن عبد الله عم الحكم وانه هو الذى أفشى سرهم ، وسردها ابن الاثير فى حوادث عام ١٨٧ هـ وقال إن عدد المصلوبين اثنان وسبعون ، وأن محمدا بن القاسم القرشى المروانى عم هشام ابن حمزه هو الذى أخبر الحكم بأمر المؤامرة

ثورة الربض:

قام الشغب فى قرطبة أو الصراع بين السلطتين الزمنية والدينية فى عصر الحكم بسبب اثارة جماعة الفقهاء لأهل قرطبة على أميرهم ، إذ نقموا منه انهماكه

ولذاته وانصرافه إلى الصيد والقنص وتركه الصلاة و بعده عن مجالس العلم والفقهاء وثار الربض على الامير وعرضوا به ، وكانوا ينادون عند انقضاء الاذان « الصلاة يا مخمور الصلاة » وشافهه بعضهم بالقول وصفقوا عليه بالاكف ، وتعرضوا لجنده بالأذى والسب، فحضر الحكم قرطبة وعمر اسوارها وحفر خنادقها، واستكثر من المماليك ورتب جمعا لا يفارقون باب قصره بالسلاح ، وأخيرا هاج الربض وهجموا على جند الامير وتغلبوا عليهم وأحاطوا بالقصر ، فنزل الحكم من أعلاه ولبس سلاحه وركب وحرض أنصاره فقاتلوا بين يديه قتالا شديدا ، وأمر ابن عمه عبد الله أن يخترق السور و يذهب مع نفر من الجيش إلى مساكن الربض و يشعل النار فيها ففعل ، وارتد الربض لاطفاء الحرائق فطاردهم الحكم وقتل منهم عددا كبيرا، وأقام النهب والقتل والاحتراق والتخريب فى أرباض قرطبة ثلاثة أيام ، ثم طلب اليه حاجبه عبدالكريم أن يعفو و يمهل من بقى ثلاثة أيام للخروج من البلاد ، فخرج عدد كبير من الفقهاء وطلبة العلم والرعاع من الأندلس إلى أفريقية ، وذهب بعضهم إلى بلاد الادارسة فى المغرب الأقصى، وذهب الآخرون وعددهم خمسة عشر ألفا إلى مصر، وكانت مصر إذ ذاك ثائرة ضد المأمون الخليفة العباسى ، فانتهز الاندلسيون الفرصة ونزلوا بالاسكندرية وامتلكوها وظلوا بها حتى عام ٨٢٦م ، وفى تلك السنة تغلب عليهم قائد المأمون عبد الله بن طاهر بن الحسين وأخرجهم من الاسكندرية فذهبوا إلى كريت ونزلوا بها وظلوا فيها حتى عام ٨٦١ م حين فتحها الافرنج .

خرج الحكم من تلك الثورة فائزا و بذلك انتصرت السلطة الزمنية على السلطة الدينية ، وعفا الحكم عن يحيى بن يحيى وعن طالوت وعمن بقى من الفقهاء وقربهم اليه وأجزل لهم العطاء ، هذا وقد وقعت هذه الحادثة فى سنة ٢٠٢ هـ

علاقته بحاكم ماردة :

ولى الحكم ابن عمه وزوج أخته المسمى أصبغ حكم مدينة ماردة ، فاختلف اصبغ مع وزيره وعزله ، فغضب الوزير المعزول وتوجه إلى قرطبة وقابل الأمير وأخبره بأن أصبغ يتحين الفرصة للاستقلال بماردة ، فهاج الحكم وأمر بعزل ابن عمه وتولية الوزير مكانه ، ورجع الوزير إلى ماردة يحمل أمر التولية والعزل الى اصبغ فلم يذعن هذا الى الأمر ، وكتب الى الحكم يعتب عليه سماع الوشاية وطرده له من عمله كما تطرد السوقة ، فغضب الحكم لعصيان اصبغ لأمره وأرسل قوة من الفرسان لاخراجه من المدينة وتنصيب الوزير فلم تستطع ، فذهب الأمير بنفسه الى المدينة وعزم على اقتحامها بالقوة ، وعندئذ تمكنت كنز زوج اصبغ أخت الحكم من مقابلة الأمير وأفهمته حقيقة الأمير وأقنعته ببراءة زوجها ، فاقتنع الحكم ودخل المدينة مع أخته وأقام فى ضيافة ابن عمه أياما ، ثم رجع الى قرطبة عندما بلغه خبر المؤامرة على خلعه كما مر بنا

الحروب مع نصارى الاسبان والفرنج :

ثار نصارى الشمال فى وجه الحكومة الاسلامية وأغاروا على الحدود ، فأرسل الحكم قواده فى سنة ١٩٠ هـ ٨٠٦ م الى حدود جليقية لصد هذه الاغارات ونجح القواد فى مطاردة نصارى الاسبان ، وطلب الفونس امير تلك الجهات الهدنة لمدة ثلاث سنين فأجيب الى طلبه ، وفى السنة التالية خرج حزم بن وهب فى باجة وزحف على لشبونه فأرسل اليه الحكم جيشا أذله واضطره الى طلب الأمان . اما الفرنج فقد انتهزوا اشتغال الحكم بقمع الاضطرابات الداخلية واغاروا على على املاك المسلمين ، واستولوا على جزء عظيم منها بين جبال البرانس ونهر ابرو ،

وفى أوائل عام ١٩٢ هـ حاصر لويز أمير أكتانيا مدينة طرطوشة فزحف عبد الرحمن بن الأمير على رأس جيش لصده وانضم اليه جيش من بلنسية وحارب المسلمون الفرنج وانتصروا عليهم انتصارا باهرا ، ورفعوا الحصار عن المدينة ، وتقهقر لويز إلى ولايته وكان ذلك عام ١٩٣ هـ (٨٠٩ م)

وفى تلك السنة جدد نصارى الاسبان فى جليقية اغاراتهم على أملاك المسلمين فخرج اليهم الحكم وصدهم ثم عاد إلى قرطبة ، وترك قواده فى ميدان القتال تحارب هؤلاء النصارى ، ثم رجعت ماردة إلى العصيان فى المدة بين ١٩٤ هـ ١٩٦ م فزحف الحكم عليها وأخضعها وأخرج اصبغ منها وأسكنه قرطبة ولكنه اضطر إلى محاربة الفرنج الذين عادوا إلى الثغور وأغاروا عليها وقتلوا ونهبوا وسبوا ، وفى عام ١٩٦ هـ سار إلى بلاد الفرنج وافتتح عدة حصون وخرب البلاد وقتل عددا كبيرا من الرجال وخلص كثيرا من أسرى المسلمين ومن بينهم امرأة كانت قد استغاثت به عند ما أسرها الفرنج و بلغه خبرها من عباس الشاعر ، فلما خلصت المرأة من الاسر قالت للعباس « والله لقد شفى الصدور وأنكى العدو ، وأغاث الملهوف فأغاثه الله وأعز نصره » فارتاح الحكم لقولها وأنشد :

ألم تر يا عباس أنى أجبتها ... على البعد اقتاد الخميس المظفرا

فأدركت أوطارا و بردت غلة ... ونفست مكروبا وأغنيت معسرا

ثم رأى الحكم أن يضع حدا لتلك الاغارات فارسل بعثة إلى شرلمان تطلب الصلح ، وفعلا تم الصلح بين الفريقين فى أواخر عام ٨١٠ م فى مدينة اكس لاشبل ، ولكن لم يدم الصلح طويلا وتجدد العداء بين الفرنج والمسلمين فى السنة التالية وذلك بسبب الدسائس الكثيرة التى كان يقوم بها بعض الطامحين من ولاة الأقاليم المسلمين ، وفى سنة ٨١١ م تأهب لويز بن شرلمان لأخذ طرطوشه ،

وفى السنة التـالية زحف عبد الرحمن بن الحكم على جيرونه وغزا أرض تربونه وقاتل أهلها وعاد ومعه كثير من الاسرى والغنائم

وقد ذكر ابن الاثير فى حوادث عام ٢٠٠ هـ ان الحكم جهز جيشاً مع عبد الكريم بن مغيث إلى بلاد الفرنج بالأندلس (نصارى جليقية) فسار بالعساكر حتى دخل أرضهم وتوسط بلادهم فخربها ونهبها وهدم عدة من حصونها، فلما رأى ملكهم ما فعله المسلمون ببلاده كاتب ملوك جميع تلك النواحى مستنصرا بهم فاجتمعت اليه النصرانية من كل أوب — ثم اقتتل الفريقان قتالا شديدا عدة أيام ثم هطلت الأمطار وطغى النهر الذى كان يفصل بين المتقاتلين وتعب الفريقان فتقفل عبد الكريم ظافراً لسبع خلون من ذى القعدة »

هذا وقد جاء فى بعض الروايات ان عبد الكريم جرح برمح ومات متأثرا بجروحه فأخذ جيشه فى الهرب بعد أن دام القتال ثلاثة عشر يوما

ولايه العهد :

أظهر عبد الرحمن بن الحكم مهارة فائقة فى إدارة الامور التى عهد بها اليه أبوه كما أنه أظهر بسالة وشجاعة فى الحروب التى تولى أمرها ضد الخارجين والثائرين على امارة قرطبة فجمع والده الأمراء والوزراء وقاضى القضاة والولاة والسراة والقواد وعهد اليه أمامهم بولاية الأمر من بعده ؛ فارتضوه جميعا وحلفوا له يمين الطاعة وكان ذلك فى يوم مشهود ساد فيه الفرح والسرور، ومن ذلك الوقت سمى ولى العهد سنة ١٩٩ هـ

وفاة الحكم :

قال ابن خلدون « توفى الحكم بن هشام آخر سنة ست ومائتين لسبع وعشرين سنة من ولايته ، وهو أول من جند بالأندلس الأجناد المرتزقة ؛ وجمع الأسلحة والعدد ، واستكثر من الحشم والحواشى ، وارتبط الخيول على بابه ، واتخذ المماليك وكان يسميهم الخرس لعجمتهم ، وبلغت عدتهم خمسة آلاف ، وكان يباشر الأمور بنفسه ، وكانت له عيون يطالعونه بأحوال الناس ، وكان يقرب الفقهاء والعلماء والعباد والصالحين وهو الذى وطأ الملك لعقبه بالاندلس » .

الفصل الثالث

عبد الرحمن الثانى (الاوسط) (٢٠٦ — ٢٣٨ هـ) (٨٢٢ — ٨٥٢م)

صار الية الملك بعهد من أبيه ثم لأخيه المغيرة من بعده ، وكان مولده بطليطلة سنة ١٧٦ هـ

تجلت عظمة الملك بالأندلس فى عصر عبد الرحمن الثانى إذ اتخذ من أبهة العباسيين مثلا فجعل له حاشية ، وجمل قرطبة و بنى مساجد وقصورا ، وأنشأ حدائق و بساتين ، وسير اليها الجداول من أعالى الجبال ، وشجع الأدب وأعطى الشعراء وكان رحيما برعيته نقى السيرة والسريرة ، جعل أمر ملكه لأربعة : فقيه وهو يحيى ونعرفه فيما مر بنا ، وموسيقى يدعى زرياب ، وجاريته طروب ، وخصى اسمه نصر : جعل عبد الرحمن ليحيى أمر القضاء والنظر فى كافة الأحوال الدينية ، فأصبح بين العلماء و بين طبقات الشعب على اختلافها رفيع المنزلة ذا نفوذ وسلطان ، له أن يعين أو يعزل من شاء من القضاة ، وكان قاسيا فهابه الناس وخافوه . ولم يكن زرياب الموسيقار واسمه (على بن نافع) أقل نفوذا من يحيى ، وقد أتى إلى الأندلس من بغداد سنة ٢٠٦ هـ ، وكان قد تعلم فن الموسيقى على اسحاق الموصلى وقيل ابراهيم فنبغ وذهب به معلمه مرة إلى الرشيد فغناه .

يأيها الملك الميمون طائره هرون راح اليك الناس وابتكروا

فطرب الرشيد كثيرا فخاف الموصلى منافسة تلميذه له ، فخيره بين أمرين إما أن يبقى فى بغداد فيعمل على قتله ولولاقى حتفه من جراء ذلك . وإما أن

يخرج إلى أرض بعيدة وفى هذه الحالة يمده بما يحتاجه فى سفره من مال وغيره ، ففضل زرياب ثانى الأمرين ، وسار إلى أفريقية حيث وصله كتاب من الحكم يستدعيه إلى قرطبة فقصدها ، وقبل وصوله علم بموت الحكم فتردد فى الذهاب ، ثم دخلها فى عهد عبد الرحمن الأوسط فأكرم مثواه ، وجعل له مائتى دينار شهريا وألف دينار يوم عيد الفطر ومثلها فى عيد الاضحى ، وخمسمائه فى منتصف الصيف ومثلها فى أول المحرم ، والواقع أنه نال رضاء عبدالرحمن فكان نديمه يقص عليه الأخبار و يروى له عجائب البلدان ، وغير زرياب بعض عادات القوم فجعلهم يقصون شعرهم وكانوا يسدلونه على أكتافهم ، وحبب اليهم استعمال كوبات الزجاج بدل الكؤوس الذهبية والفضية ، وأرشدهم الى تغيير ملبسهم مع تغير الجو فى الفصول ، فصارت له مكانة سامية ، وعد بين فلاسفة وشعراء وقواد وأمراء وقته ، وكان زرياب فطنا نبيها فلم يتدخل فى السياسة أبدا ، وتركها للسلطانة طروب وأصلها من نافارا (نبرة) والخصى نصر . أما طروب فكانت امرأة ذات أنانية تميل الى الدس جشعة فى حبها للمال ، ولم يكن فى قلبها موضع للرحمة ، وكان نصيرها فى أعمالها خصيا شاركها فى صفاتها وهو من أب اسبانى وكان لا يتكلم العربية يمقت المسيحية والمسيحيين وفيما أوردناه الكفاية لوصف الحالة فى دار الملك فى قرطبة .

الثورات الداخلية فى عهده :

(أولا) فى أثناء ذلك كانت البلاد تسير فى طريق الفوضى وقد انتابتها الحروب الداخلية ، فكانت الحرب قائمة لمدة سبع سنوات بين اليمنيين و بنى معد فى مقاطعة مرسية ، وكان الأمير يرسل القواد بالجيوش ليزيلوا الشقاق المستحكم بين

بين الفريقين ويكفوهم عن القتال ، فكان إذا جاء قائدا أميرى يسكنون وإذا رحل يهبون .

(ثانيا) ثورة ماردة :

كان لنصارى المدائن العظيمة فى الاندلس ارتباط بأهل أوروبا الآن كثيرين منهم كانوا يسافرون الى فرنسا وألمانيا وغيرهما من بلدان أوربا للمتاجرة ، وكانوا عند مايختلطون بأقوام تلك البلدان يبالغون فى سرد الروايات التى تدل على سوء معاملة الحكام من العرب لهم ، فتحرك لويس ملك فرنسا عطفا على هؤلاء النصارى ، وأرسل كتابا عام ٢١٣هـ (٨٢٨م) الى ماردة يحرضهم على القيام فى وجه الحكومة الاميرية ويعدهم بالمساعدة فى ثورتهم ، وقد صادف هذا الكتاب هوى فى نفوس الاهلين لما كانوا يلقونه من القسوة على يد عمال الامير ، فهبوا بالثورة وقادهم محمود بن عبد الجبار الذى كان جابيا فى عهد الحكم وفصل من وظيفته فى أوائل عصر عبد الرحمن بسبب إنضمامه الى ثورة عم أبيه عبد الله ثم هجموا على بيوت العمال ونهبوا وخربوا وفتكوا بعدد كبير منهم ، وعلم الامير بخبر الثورة فأرسل الى عبد الرؤف بن عبد السلام والى طليطلة أمرا بالزحف على ماردة وقمع الثورة ، فأطاع الوالى الامر ، وزحف على المدينة الثائرة وحاصرها وخرب ضواحيها وأماكن النزهة بها ، فكتب له الامير بأن لايتمادى فى التخريب حتى لايزيد نار الحقد فى قلوب الثائرين ، وقد استمر الحصار زمنا طويلا ساءت فيه حال المدينة الى درجة كبيرة ، وقرر عقلاؤها أن يفتحوا أبواب المدينة ، وأرسلوا الى القائد نفرا يطلبون اليه الدخول فى ساعة معينة من الليل ، ودخل عبد الرؤوف المدينة ، وطارد زعماء الثورة وقتل عددا عظيما منهم ، ثم نادى بالامان سنة ٢١٣هـ ،

وقد تمكن عدد من قواد الثورة من الفرار ومنهم محمود بن عبد الجبار الذي فر إلى جليقية ، ولكن الثوار عادوا إلى ثورتهم بعد أربع سنوات ، فخرج إلى المدينة الامير بنفسه ولما وصلها أراد ألا يدخلها سافكا للدماء . فأمر جنوده أن يعلقوا فى سهامهم رقما كتبوا فيها إن الامير يعفو عن الثائرين اذا فتحوا أبواب المدينة ما عدا زعماء الثورة ، ونجحت المناورة وفتح الثوار أبواب المدينة ، ودخلها الامير وجنده وفر محمود بن عبد الجبار الذى كان قد عاد إلى المدينة وقاد الثورة ، وظل خارجا على الامير فى جهات أخرى حتى قتل عام ٢٢٥ هـ

ثالثا — ثورة طليطلة :

وثورة طليطلة التى نحن بصددها ترجع إلى أيام الحكم فى دورها الاول والثانى وذلك أن أهلها هدموا الحصن الذى كان بناه عمروس ، فسار اليهم الحكم وأخذهم على غرة وأحرق بيوتهم ، فلما كانت امارة عبد الرحمن جددت طليطلة الثورة بزعامة هاشم ، وطرد جند عبد الرحمن الثانى من المدينة (٨٢٩ م) وأحرق بيوت ومزارع المسلمين بها ، وقوى أمر الثورة بانضمام الكثيرين اليه من الجهات المجاورة فأمر عبد الرحمن الثانى عامله على الحدود محمد بن وسيم باخضاعها فهزم ، وظل الثوار منتصرين سنة كاملة حتى أرسل المدد فهزم الثوار وقتل زعيمهم هاشم

وفى عام ٨٣٤ م ثارت طليطله للمرة الرابعة فذهب اليها الأمير أمية فهزموه وأرادوا أن يقتفوا أثره وكان أعدلهم كمينا فخرج عليهم الكمين وكان يقوده ميسرة فلاقوا هزيمة منكرة ، غير أن هذه الضربات المتتالية لم تزحزح أهل طليطلة عن عزمهم على نيل استقلالهم ، فاذا كان عام ٨٣٧ م حاولوا للمرة الاخيرة تحقيق أمانيهم ، فسار اليهم الوليد أخو الأمير وحاصرهم حتى كادوا

يموتون جوعا ، ولما لم يسلموا هاجمهم واستولى على مدينتهم عنوة فى ١٦ يناير سنة ٨٣٧ م ، وأقام حصن عمروس ثانية وأخذ الرهائن إلى قرطبة وهكذا فقدت طليطلة استقلالا ظلت تحلم به مدة ثمانى سنوات .

رابعا — ثورة قرطبة أو حركة الاستشهاد :

أقام بقرطبة وفيما حولها كثير من المسيحيين المتعلمين ، وكانوا آمنين على حياتهم وأموالهم لهم حرية العبادة ، والتحق بعضهم بجيش العرب ، وشغل آخرون وظائف أخرى بقصر الامارة ، فطاب لهم العيش وتعلموا العربية ، وأجادوها وحفظوا أشعار العرب وفلسفتهم ودرسوا كتبهم الدينية ، وشغلهم هذا عن لغة قومهم وعبادتهم غير أن فئة قليلة منهم ظلت نار الحقد والتعصب الدينى تتأجج فى صدورهم ، وعز عليهم أن يروا أجمل مدنهم فى يد الاسلام ، وكم تاقت نفوسهم إلى النزوح إلى الشمال حيث المسيحية فى الاستقلال ، وزاد من كراهيتهم بعض الأوامر الاستثنائية التى كان يصدرها الأمير من وقت إلى آخر ، وشجعهم القسس على موقف العداء نحو الاسلام ، وكان يولوجيوس ألدهم عداء (ونجدنا أبعد من أن ندنس هذه الصفحات بنقل ما كتبه هذا القس عن النبى محمد صلى الله عليه وسلم) وجملة ما كان يتذمر منه المسيحيون سوء معاملة الرعاع لهم ، فتذكروا أيام كانت تدق النواقيس فى الكنائس . وكانت للمسيحية الكلمة الأولى .

ودفعهم موقفهم هذا من حيث تعصبهم الدينى وتذكرهم مجد المسيحية فى الأندلس قبل ظهور الاسلام بها واستهزاء العرب بهم إلى احداث الفتن فى الجهات الجبلية ، وتكوين عصابات تعكر صفو الأمن فى داخل البلاد ، ولما لم يستطيعوا ذلك فى قرطبة نفسها عمدوا إلى تضحية أنفسهم وسموا أنفسهم الشهداء

متبعين خطوات المبشرين الأولين ، وما لقيه هؤلاء من جراء نشر المسيحية فى بداية ظهورها ، وقاد تلك الفئة شخصان يولوجيوس والفارو وثانيهما من أثرياء قرطبة ، وكانت تعيش بهذه المدينة فتاة تدعى فلورا وكانت لأب مسلم مات فى حداثة سنها ، فكفلتها أمها المسيحية ، وطبعا اعتنقت المسيحية بحكم الوراثة عن أمها ، وتذرعت بها وتعصبت لها مما جعل أخاها المسلم يتدخل فى أمرها و يمنعها عن الذهاب إلى الكنائس ، ورغم هذه الرقابة كانت تذهب سرا اليها ، وصارت على رابطة دينية وطيدة بالقس يولوجيوس ، ومما ثبت فى نفسها أن المسيح لا يرضى عنها ما دامت تخفى حقيقة دينها فعزمت على اعلان مسيحيتها فهربت مع أخت لها ، واختفت بين جماعة من المسيحيين

ثم اضطرت للعودة إلى بيت أخيها وصارحته أنه لن يستطيع تغيير عقيدتها وانتهى به الأمر أن ساقها إلى القاضى فأنكرت أنها يوما ما كانت مسلمة ، وأعلنت أنها لا تعرف غير المسيحية دينا ولا تعترف بغير المسيح إلها ، فأمر القاضى بجلدها رحمة بها وشفقة منه عليها علها تنوب إلى رشدها ، وقبل أن تبرأ من جروحها هربت ثانية من بيت أخيها وآواها مسيحى صديق لها ، وأصبحت على اتصال بيولوجيوس وكان يقدسها لعلو همتها وذكائها وريعان شبابها وندورة جمالها ، ثم خرجت من قرطبة وتوارت عن الأنظار ، وفى عام ٨٥٠ م تجرأ فتى يدعى برفكتوس على الطعن فى الدين الاسلامى وفى نبى المسلمين جهارا فحوكم أمام القاضى فأمر بأعدامه . وحدد نصر يوم الاعدام واختار لذلك أول يوم عيد الفطر وقبيل غروب الشمس نفذ حكم الاعدام ولاقى المجرم حتفه بكل ثبات بعد أن أكثر من اللعنات على الاسلام والمسلمين عامة ونبيهم خاصة ، وعد المسيحيون قتيلهم بين القديسين ومما زاد من حسن ظنهم بقديسهم أن غرق اثنان من المسلمين يوم

بالاعدام ، وان نصرا لاقى منيته ولم تمض سنة على ذلك الحادث .

ولهذا الظرف نوجز كيف كانت نهاية نصر فنقول : — انها كانت جزاء خيانته لسيده وذلك أن طروب أوعزت اليه أن يساعدها على اخلاء عرش الاندلس لابنها عبد الله بقتل منافسه أخيه لأبيه محمد وبقتل زوجها نفسه فحصل نصر على سم زعاف وقدمه لسيده على شكل دواء نافع ، ولكن شاءت الظروف والاقدار أن يعلم الامير بأمر هذا السم فلما قدم اليه أظهر خوفه ومنعا للريبة اضطر نصر أن يشربه فشربه ومات لساعته

وحدث بعد ذلك بقليل أن اتهم تاجر مسيحى يدعى (حنا) بالتعريض بالنبي محمد ، وذلك أنه كان دائما يقسم بالنبي وحياته كذبا بأنه صادق فيما يقول عن جودة بضاعته واعتدال أثمانها ، فخاطبه القوم فى ذلك فقال « لعنة الله على كل من يذكر اسم محمد » وكان فى قوله الاخير الكفاية فأمر القاضى بجلده أربعمائة جلدة ، وعلى أثر هذه الحادثة صمم جماعات الشهداء على أن ينالوا رضاء المسيح بتقديم أنفسهم للسياف ولم يجدوا اذلك طريقة سوى لعنهم النبى وسبه علانية ، وكان أسبقهم إلى ذلك قس يدعى « اسحاق » وكان فى بداية أمره ناموسا لعبد الرحمن الثانى ثم دخل خدمة الكنيسة حيث تشبعت نفسه بنظرية وجوب الاستشهاد ، فذهب يوما من تلقاء نفسه إلى القاضى وقال « أريد أن أعتنق الاسلام ، فأرشدنى إلى السبيل » فسر القاضى و بدأ يحدثه عن الاسلام ، وهنا قاطعه القس قائلا « لقد كذب نبيكم وخدعكم بكذبه وافترائه » ثم لعنه وقال « لقد ذهب إلى حيث مصيركم إلى جهنم و بئس القرار » فلطمه القاضى على وجهه ثم قال :

« لعلك ثمل من كثرة الشراب أو بك مس فى عقلك فتبين ما تقول »

فأجاب القس « إنى أملك قواى العقلية تماما ولم أذق الشراب فى يومى و إن إخلاصى لدينى دفعنى إلى ما كان منى » ، فأمر القاضى بسجنه وهو يعتقد أن الرجل به جنون ، ولكن عبد الرحمن وقد هاله ما سمع أمر بقتله وصلبه ثم إحراقه ، وفى ٣ يوليو سنة ٨٥١ م نفذ حكم الاعدام وضم المسيحيون اسمه إلى أسماء القديسين .

و بعد مقتل اسحاق بيومين تقدم سانكو وسب النبى فضرب عنقه ، وفى يوم الأحد ٧ يوليو نال ستة منهم نفس الجزاء لنفس السبب ، وكأن هذا الجزاء قد زاد من اقدامهم فتطوعوا بقطع رءوسهم ، و بلغ عدد شهدائهم أحد عشر شهيدا فى أقل من شهرين ، ويجدر بنا أن نبين هنا أن أغلبية المسيحيين وقد خلت نفوسهم من ذلك التعصب الشديد أنكروا على إخوانهم ما كان منهم وعدوا عملهم جنونا أصابهم وأدى بهم إلى الانتحار . وحاجوهم بآيات من أنجيلهم تبين لهم جهلهم ، وقد وافق قسسهم على هذه الآراء وأيدوها ، وعبثا حاول يولوجيوس إثارة نفوسهم ثانية

أما الحكومة الاسلامية فقد وجدت نفسها أمام مسألة خطيرة ، ففكرت فى حل يضع حدا لهذه المذابح من جهة ومنع أولئك القوم من طعنهم الدين الاسلامى من جهة أخرى ، فدعت ذوى الكلمة والنفوذ من المسيحيين إلى عقد مجمع يقرر بطلان طريقة الاستشهاد ، وناب عن عبد الرحمن فى حضور هذا الاجتماع رسول مسيحى من قبله وأسمه جوميز بن انطونيان ، وهذا شرح للمجلس سوء عاقبة أعمال الشهداء ، وأنها قد تؤدى إلى استئصال شأفة المسيحيين فى البلاد ، وسأل المجلس أن يصدر نداء يوجهه إلى العالم المسيحى بالأندلس يبين خطأ نظرية الاستشهاد وأن يجيز للأساقفة والقسس سجن من تظهر عليهم هذه النزعات ، وصدر قرار المجلس بذلك ، فلم يأبه بولوجيوس وأتباعه بهذا النداء ، فطوردوا من مكان إلى

مكان وأخيراً قبض عليهم وسجنوا ، وفى السجن قابل يولوجيوس فلورا مرة أخرى وفى ٢٤ نوفمبر سنة ٨٥١ م أعدمت تلك الفتاة وزميلة لها تدعى مارى

عقب ذلك عفا عبد الرحمن عن يولوجيوس ومن معه ، غير أن هذا العفو لم يضع حداً لتلك الحالة

أغارة النورمان :

جاء فى كتاب تاريخ العرب فى اسبانيا لمؤلفه المرحوم محمد بك دياب ما يأتى :

فى سنة ٢٢٩ هـ (٨٤٣ م) جاء على شواطىء أشبونه أربع وخمسون سفينة تقل كثيرا من أقوام متوحشين جاءوا من البطليق وشواطىء النرويج يعرفون عند الأوربيين بالنورمان أى رجال الشمال و يعرفون عند العرب بالماجوج فنهبوا البلاد وقتلوا العباد ، وأحرقوا المدائن ، فاجتمع المسلمون وحملوا السلاح وجاءوا ليدفعوا غائلتهم فلما رأوهم ركبوا السفن بغنائمهم واختفوا ، ثم نزلوا فى شاطىء الغرب ويظهر أنهم لما اجتمعوا عند مصب النهر الكبير انقسموا أقساما : قسم توجه إلى افريقية وقسم توجه إلى قادس ثم إلى شدونه . والقسم الثالث دخل النهر وصمد نحو اشبيليه فى ٨ المحرم سنة ٢٣٠ هـ (٢٥ سبتمبر سنة ٨٤٤ م) ، وكانوا ينهبون القرى التى على الشاطئين و يملؤن سفنهم بالنهاب ، وقد ملؤا سكان الشواطىء رعبا حتى فروا من وجوههم ؛ ولما وصلوا إلى جزيرة قبطيل قابلتهم جنود العرب المجتمعه هناك وحاربتهم فغلبوها ، ثم نهبوا اشبيليه ، وكان السكان قد اخلوها وفروا إلى قرمونه ، وتحصنوا فى طليطلة ، فلما جاء الماجوج اليهم غلبهم مسلموا هذه المدينة ، وفى ثانى عشر هذا الشهر علموا أن الامير أرسل خمس عشرة سفينة تقل جيوشا شجعانا لتصدهم عن المرور فى النهر فانسحبوا واختفوا فى المحيط ، وعادوا

إلى شواطىء المغرب ، وقد أمر عبد الرحمن جنود ماردة وشنترين وقلمرية بالتوجه لمراقبتهم والمحافظه على السواحل، ولكنهم كانوا قد فعلوا افاعيلهم قبل ان تجتمع هذه الجنود ، وفى هذه الأثناء اخذ عبد لرحمن فى السير وتحت امرته فرسان ليساعدوا اشبيلية ، فلما حضر وشاهد ما اتلفته ايدى هؤلاء البربر المتوحشين بدون أن يقابل منهم أحدا حزن وأمر بأصلاح الفاسد ورتق فتوق التلف » .

وفى تاريخ ابن الاثير « إن عسكر المسلمين قاتلوهم وقتلوا منهم سبعين رجلا وهزموهم حتى دخلوا مراكبهم ، وسير الأمير جيشا آخر وأتاه المدد من كل ناحية فخرج اليهم المجوس وقاتلوهم فكاد المسلمون ينهزمون ثم ثبتوا وهزموا مقاتليهم إلى مراكبهم ، وقتلوا منهم خمسمائة رجل وأخذوا منهم أربع مراكب وأحرقوها بعدما أخذوا ما فيها ثم خرج المجوس إلى لبلة فأصابوا سبيا ، ثم نزلوا جزيرة قوريس (قورة) وقسموا ما كان معهم من الغنيمة ، فحمى المسلمون ودخلوا إليهم فى النهر وقتلوا منهم رجلين ، ثم رحل المجوس ، فطرقوا شدونه فغنموا أطعمة وسبيا ثم وصلت مراكب عبد الرحمن إلى أشبيلية فلما أحس بها المجوس لحقوا بلبلة فأغاروا وسبوا ، ثم لحقوا باكشونية ، ثم مضوا إلى باجه ثم انتقلوا إلى أشبونه ثم ساروا وانقطع خبرهم عن البلاد »

أمر عبد الرحمن بانشاء سفائن فى قادس وقرطاجنة وطرجونه لتحفظ وترد اغارة المغيرين إذا عادوا إلى البلاد وناط ذلك بابن يعقوب

أثر حكم عبدالرحمن الثانى :

كان له أثر كبير فى ترقية الحركة الفكرية وذلك بتشجيع العلماء وميله إلى الأدباء ، فكان بلاطه مزدحما برجال العلم والأدب والدين والفلسفة والشعراء ،

و بسبب وفرة المال فى خزانته عمد إلى الاصلاحات الداخلية فبنى القصور وأقام الجسور وزاد فى جامع قرطبة

ومن شعره

ولقد تعارض أوجه لأوامر فيقودها التوفيق نحو صوابها

والشيخ إن يحو النهى بتجارب فشباب رأى القوم عند شبابها

وكان عبد الرحمن يا كرامه زريابا أكبر ناصر لفن الغناء .

هذا وقد مات عبد الرحمن فى سبتمبر سنة ٨٥٢ م قبل أن تنتهى حوادث النصارى المستشهدين